وفى وسعنا أن نمضى الى أبعد مما ساقه الدكتور طه أو أن نتعمق شعر الطبيعة مثلا ، فنراه على غير ما ألف الباحثون . ولنضرب على ذلك مثلا يسيرا معروفا . فالباحثون يرون أن ابن المعتز كان معتدل المزاج ، مهيئا للتفاؤل ، ولكنهم ينسون حين يقرءون شعر ابن المعتز ـ فيما يسمونه الطبيعة ـ أن ابن المعتز نظر إلى الهلال نظرة غريبة وضاع الإحساس بغرابتها وسط ترديدها دون يقظة كافية . قال إن الهلال أشبه الأشياء بزورق غريب صنع من فضة وأثقله العنبر ، ولايكاد كثير من القراء يلتفت إلى هذه الصورة ، ولايكاد يجد فيها هذا الإعياء ، ولم يكن الهلال أو الزورق يستطيع إلى الحركة المطمئنة سبيلا ، فالزورق مثقل أو مرهق . وهكذا أظن طه يغير وجه الشعر العربى فى المدح وفى غير المدح ، ولايمل الدكتور طه مطلقا من أن يقول إن النظام السياسى فى القرن الرابع ـ أيضا ـ كان يعرض بعض الناس للفساد والتشاؤم . ولكن معظم الباحثين يميزون شعر أبى الطيب تمييزا مصطنعا ويرونه أقساما ، فالتشاؤم عندهم لايجدون له صدى فى المدح ، والفلسفة المتشائمة ـ عندهم ـ لايجدون فيها صدى لذلك الفساد الذى يزعمه بعض الباحثين فى بعض نواحى النظام العام . وهكذا نقرأ مديح المتنبى ، فنجده فى بعض الأحيان ـ على الأقل ـ فيما يزعم الباحثون صفوا كله ، هذا الصفو قد نراه غريبا لايمكن أن يصدق أو يطمأن إليه اطمئنانا كاملا ، ومن الخير أن يبحث القراء عن شىء فى هذا المديح يجلو بواطنه ، أو يجعله أكثر قلقا والتزاما بمشكلات المجتمع .

ولأمر ما زعم المعرى أن النفس سجينة فى الجسم ، وأن الجسم سجين فى العالم ، وظن جمهور القراء أن أبا العلاء يعبر عن رأيه أو يشجع نفسه على سيرة معتزلة . ولكنهم لايتساءلون أكان أبوالعلاء يقرأ شعر المديح قراءتنا السطحية هذه ، أكان أبوالعلاء يدرك إدراكا غامضا أو واضحا أن الشعراء سجناء ، ولكنهم يحاولون الحركة وشيئا من العبث والتلهى فى داخل سجن المديح .

وفى ختام هذه الموجة المتتابعة من تشكك طه حسين الضمنى فى مفهوم المديح وتناول الدارسين له نشير إلى شىء قد يكون غريبا ، حينما ترجم كتاب الشعر لأرسطو حدث شىء يلفت النظر ، فقد ترجمت كلمة التراجيديا إلى كلمة المديح . ونحن نعرف أن التراجيديا اليونانية كانت مساءلة الإنسان لحريته أمام الآلهة والقضاء ، وكانت المأساة مظهر التشاؤم حين ينظر الإنسان إلى الصلة بينه وبين القوة التى تحكم ولا معقب لحكمها ، وقد درج المؤرخون على أن يقولوا ببساطة شديدة : إن الفلاسفة